فلسفـــة البيـــولوجيـــا .. و هندسة الإدراك بمنظور فلسفي شرقي نحو نظريـــة معرفيـــة جديدة عن الطبيعة
(الجزء الأول)

وليد مهدي مسلم

جامعة واسط – كلية العلوم

الفلسفة البيولوجية ... و المنطق الشرقي

الفلسفة البيولوجية .. وفي سياق المنطق الشرقي تتخذ لنفسها مساراً جديداً يرتقي بها من مجرد بنى أولية المفاهيم في بحث العلاقات الإجرائية للبحث التي سبق وتناولها الراحل كارل بوبر في كتابه الأخير " أسطورة الإطار " إلى مستوى إيجاد صيغ بناء هذه العلاقات وصولاً إلى فرضيات علمية مؤسسة بخلفية موضوعية للعلاقات الطبيعية المنفصلة عن الواقع الطبيعي مثل الرياضيات ودورها في الفيزياء تماماً ..! إذ عدّ " بوبر " مسار التطور البيولوجي يمكن أن يرشدنا إلى الطريقة التي نناقش بها أفكارنا أثناء التحري عن النظريات العلمية ...

فهو يذكر إن مسلك التطور البيولوجي مبني على :

التوجيه و الإنتخاب .. إذ يكمن التوجيه في المادة الوراثية " الجينية " في الخلايا الحية ، وهذه الخلايا تدخل في علاقات تزاوج وإعادة خلط فيما بينها تنتج صفات جديدة في الكائنات الحية ، هذه الصفات تتعرض للإنتخاب الطبيعي ، فتبقى الصفات الأفضل وتضمحل الأخرى بمرور الأجيال ، وهكذا يمكن للأفكار أن تختلط وتنتج أفكاراً أو " مشاكل " علمية جديدة كما يسميها بإمكان المنهج التجريبي أن يقصي غير الملائم أو غير المفيد للتقدم المعرفي ... وهذه العملية الأخيرة تشبه الإنتخاب الطبيعي برأيه .. (١).

أما في هذا البحث ، فإننا سنتجاوز فلسفة التوجيه و الانتخاب البيولوجية إلى ما هو أبعد من ذلك وهو عــدّ " الآليات " والقوانين التي تنظم البيولوجيا هي القوانين " الأعقد " القادرة على تفسير القوانين الأقل تعقيداً في الفيزياء حسب رأي بوبر ..

والدليل الذي سيرشدنا في هذا الطريق هو " المنطق الشرقي " ، إذ إن مفهوم إعادة الخلط البيولوجي لإظهار صفات جديدة في الخلايا الحية هو نفسه الذي يحكم الجدول الدوري للعناصر ، إذ يزيد العدد الكتلي والذري للنوى فتتنوع هذه العناصر ، وهو ركن أساسي في المنطق الشرقي إذ يتحد النقيضان لتكوين صورة ثالثة جديدة ... حسب رأي هيجل ، وهو ما يحدث أثناء إتحاد المشيج الذكري مع المشيج الأنثوي لتكوين البيضة المخصبة **Zygote** . ولعل قاعدة " الهولوغرام " في الفيزياء ، وهي ركن أساس من منطق الشرق تجد لها الصدى في البيولوجيا بفلسفة النظام " المنطوي " ، إذ يكون " الجزء " صورة مصغرة عن الكل و الهولوغرام .. نظام يمثل الجزء فيه صورة مصغرة عن الكل الكبير الجامع.. ولا يمكننا في الفيزياء التعبير عن هذه القاعدة إلا بوصف ظاهرة التصوير الليزري ثلاثي الأبعاد والمعروفة بالهولوغراف ، إذ أن أجزاء الهولوغراف صور مصغرة عن الصورة الكبيرة الأصلية .. ، لكن ، في نطاق البيولوجيا سنجد إن الأخيرة مؤسسة أصلا على مبدأ الهولوغرام الذي أسميناه في المنطق الشرقي بإسم : التجانس البنيوي ..

إذ إن الخلية هي نموذج متجانس البنية مع الجسم الكبير الذي تشكله مجموعة الخلايا، إذ تمثل الخلية صورة مصغرة عن الجسد الكبير الجامع لكل الخلايا الأخرى...

هذا المنطق لم تكن لدى الشرقيين القدماء صورة واضحة منهجية عنه مثل منطق أرسطو في اليونان مثلاً ، لأنه منطق البيولوجيا نفسه ، المنطق المبني على " الفطرة " والتلقائية الإستنتاجية البسيطة ، وقد توصلنا إليه في بحث سابق بتحويل قواعد المنطق الأرسطي إلى نقائضها ، أي قبول التناقض بدلاً من " عدم التناقض " وقبول الحد الوسط بدلاً من قاعدة " الثالث المرفوع " ، وكانت نتائج الاستقراء والتحليل

ظهور القواعد الأساسية الثلاث ، ونعيد الآن إستذكار القواعد الأساسية في المنطق الشرقي :

١. التجانس البنيوي : وهو مبدأ إحتواء الكل في الجزء .. ويماثله " الهولوغرام " في منطق العلم الحديث في البصريات والتصوير ثلاثي الأبعاد ونظريات الذاكرة .

وفي هذا الموضع ، فإن الوحدة الكونية الكبرى ، الصورة النهائية للكون (ما بعد المجرات **Metagalaxy**) يجب أن تطابق الوحدة الصغرى أو ما نسميها (الذرة **Atom**) .

٢. التعاقب الدوري أو التعاقب الثنائي : وهو يشير إلى التجدد و الانبعاث ودورة الفصول والتاريخ والزمن بخطوط دائرية حول محور متقدم (حلزون متقدم) .

لتشكيل " محصلة " سبق ومثلناها في الشكل (٢) و (١) إذ الحركة بين القطبين وهي تبني الخط الأخضر الممثل لـ" إعادة الخلط " كهوية ثالثة جديدة للنقيضين سنلاحظ لاحقاً في بحوثٍ قادمة أن " الوعي " يتعلق بهذه المحصلة بين عالمين متناقضين... وكذلك التغاير و التعابر الجيني و الاندماج الكروموسومي وكلها سبق وعبرنا عنها بمفهوم " إعادة الخلط " إذ العالم الموجب (الحسي) ، والعالم السالب (الخافية أو اللاوعي) ينتجان الوعي والسلوك كما تنتج البيضة المخصبة كائناً ثالثاً من أصل كائنين .

٣. التوحد والتنافر : التوحد بطاقة الحب في إتجاه تحويل التناقض إلى هوية ثالثة كحال العقل البدائي الأول والتنافر بطاقة الكراهية لتأصيل القطبية والتمييز بين الثنائيات كـــ(الأنا والآخر) حال الحضارة العصرية . (٢)

ولكن كيف يماثل " الهولوغرام " قاعدة التجانس البنيوي..؟

في الحقيقة إن الصورة التي تمثلها الخلية ليست الصورة الحسية ثلاثية الأبعاد التي نألفها نحن بحواسنا التقليدية، أي صورة العينين وباقي أجزاء الرأس والجذع واليدين والقدمين وإنما النظام المنطوي في الخلية الذي يمثل كل هذه الأجزاء

(**DNA**) .. !

فالـ(**DNA**) ندرسه هنا كظاهرة إنطواء لكل صفات الفرد ليس في خلية بعينها من الجسم الحي وإنما في كل خلايا الكائن ، وهذا يعني أن القاعدة التي أسست بها فلسفة الحياة والتطور الحيوي هي قاعدة " التجانس البنيوي " و " إعادة الخلط " أو ما أسميناه قبول التناقض في المنطق الشرقي ، إذ تظهر صفات مختلفة نتيجة التوجيه الجيني فتستبعد صفات معينة وتستبقى أخرى بالإنتخاب الطبيعي حسب رأي بوبر ، وهذا الانتخاب الطبيعي سنسميه في هذا البحث " الوعي الكوني " كما سيأتي لاحقاً في دراسة علاقة المنطق الشرقي بالوعي .كذلك تتعدى دراستنا للفلسفة البيولوجية إلى محاولة فهم الأسلوب الذي تنهجه في إعادة الخلط ، وهو المبدأ الكمي (الكوانتي **Quantic**)في البيولوجيا .. إذ تتم إعادة الخلط بدمج مشيج ذكري و أنثوي يحمل كل منهما نصف العدد الكروموسومي للجينات ، هذه العملية تتم في الأحياء المجهرية بصورة مشيج ذكري واحد يتلاقى مع مشيج أنثوي واحد أيضاً ، كما في بعض البكتريا والفطريات والخمائر و أنواع من الطحالب .. لكن .. تتطور هذه العملية لتتحول إلى الصورة الكوانتية الكمية في الكائنات الراقية مثل الفقريات ، إذ تلاقي ملايين النطف بيضة واحدة فقط ، والنطفة التي تلقح هذه البيضة هي واحدة فقط ... !

وكما سنرى لاحقاً لدى دراستنا لمفهوم الوعي بمنظار المنطق الشرقي ، فإن العلاقة الكمية أو الكوانتية الإحتمالية في هذا النظام من إعادة الخلط إنما يرتبط بالوعي لدى الكائنات إرتباطاً وثيقاً ، ويكفي أن نشير هنا إلى ظاهرة " إنطواء " الثقافة الإجتماعية والمعارف التأريخية المتراكمة على مر السنين للعقل البشري في عقل كل منا ، وكذلك فإن الإمكانيات التي لدى أدمغتنا تتيح لنا أن نكون أذكى مما نحن عليه لو

إستعملنا كامل طاقة التفكير التي يتيحها لنا الدماغ .. لكن .. لماذا لا يستخدم الفرد إلا طاقة محدودة قد تزيد أو تنقص عن الخمسة بالمئة من طاقة الدماغ الأصلية .. ؟!

إنها " مشكلة " جديدة تكشفها لنا الفلسفة البيولوجية ، وتعرضها لنا كصورة طبق الأصل لمشكلة " انطواء " الجينات كصورة مصغرة عن الصورة الكبيرة للجسم البشري ، فلماذا تحتوي كل خلية في الجسم نفس الجينات ، لماذا على سبيل المثال تحتوي خلايا العين على جينات الكبد فيما لا تفتح فيها إلا شفرات أنسجة العين !؟

لماذا يحتوي دماغنا على هذه القابلية والقدرة ولكن لا نستخدم إلا نسبة ضئيلة ، وهكذا نحصل على إجابة لسؤالين بإعادة الخلط ... بين مشكلة الجينات ومشكلة خلايا الدماغ!

فالجينات تحمل صورة مصغرة منطوية عن الجسد الكبير الجامع في كل خلية ، لأن هذه الخلايا تمتلك وعياً مستقلاً لا نشعر بـــه ..!

والوعي الفردي لا يحدث إلا ضمن نظام وعي كبير جامع وهو وعينا الفردي المستقل المتركب أصلاً من وعي " ذري " متراكب في تحصيل مستويات أدنى من الوعي ، فالأنا التي نشعر بها كذات واحدة "مصمتة " مستقلة هي في الحقيقة مركب معقد من مليارات الأنا للخلايا الحية للجسد .. أو على الأقل .. خلايا الجهاز العصبي ، حسب مفهوم التجانس البنيوي للمنطق الشرقي .وهكذا .. ففي السياق الجمعي العام لعموم الجنس البشري فإننا نشكل بتعداد المليارات من سكان الكرة الأرضية وعياً كونياً كبيراً جامعاً ... أنا واحدة .. لا تشعر بحقيقة الأنا المليارية المتعددة ، ولو اتيح لكل واحدٍ منا إستخدام كل طاقة دماغه الفعلية ، ولو أتيحت لكل خلية فك كل الشيفرات مثل الخلايا الجذعية **Stem cells** لانتهت حياة الجسد الكبير الجامع بزوال التخصص على الصعيد الجسمي البيولوجي ، والتخصص على الصعيد الإجتماعي العام ..!

وهكذا .. نجد إن خاصية التجانس البنيوي أو " الهولوغرام " كما تسمى في الفيزياء تتيح لنا فهماً اكبر لفلسفة الحياة والوعي وبنظام يتخذ صيغة رياضية تشبه قضايا

معالجتها للوعي والحياة الرياضيات التقليدية وهي ترسم صورة الطبيعة " الفيزياء " لكن.. ومن خلال ما سنتابعه نجد بان البيولوجيا، كفلسفة وليدة من رحم المنطق الشرقي تصبح فلسفة " كونية" عامة تعالج قضايا الحياة والوعي والفيزياء ..وحتى الرياضيات الطبيعية نفسها .!

ومن أهم القضايا التي سنتطرق إليها في بحثٍ لاحق هي قضية " الوعي " و ارتباطها بالفلسفة البيولوجية الكمية التي ذكرناها سابقاً بمشكلة : المليار نطفة ذكرية مقابل بيضة واحدة.!

.. إذ تجيبنا خواص " الوعي " و " العقل " عن هذا السؤآل في الوقت نفسه الذي تفسر لنا فيه عملية التخصيب ماهية الوعي .. !

سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل في بحثٍ لاحق .. ونحتاج الآن وقبل الدخول في موضوع الوعي أن ندرس ماهية " الإدراك " في ضوء فلسفة الاستدلال البيولوجية

منطق البيولوجيا .. وفلسفة الإدراك

عندما ندرس " الوعي " و " الإدراك " العقلي الإنساني بزاوية معرفية مؤسسة على " الفلسفة الشرقية " ، يمكن أن نستخلص رؤية جديدة نجدها تطرح نفسها انموذجاً متكاملاً في تعاملها مع كل المشاكل والقضايا الفكرية والفلسفية العالقة في مسيرة المعرفة المعاصرة المؤسسة بمنظار الفلسفة الغربية ..، فقد نادى " بوبر " بالتحول إلى إستخدام " فلسفة البيولوجيا " لتحقيق انتقالة نوعية في المعرفة بصورة عامة والفيزياء خاصة، لأن البيولوجيا معقدة الأنظمة .. فيما الفيزياء (علم الطبيعة) بسيطة التعقيد .. و بإمكان المعقد تفسير البسيط وليس العكس .. (٣)

إن فلسفة البيولوجيا ، ومن خلال مواضيع البحث ، ستأخذنا بعيداً لا في تفسير ظاهرة الإدراك فحسب ، وإنما في إعادة رسم الطبيعة برمتها ..مستخلصين في النهاية إطاراً معرفياً جامعاً للعلوم الأساسية: علم النفس (السيكولوجيا) و علم الأحياء (البيولوجيا) وعلم الفيزياء ..

ومثلما تشارك الفيزياء اليوم في " تحديث " منهجية طريقة تفكير وثقافة البشر .. فإن البيولوجيا هي الأخرى ستشارك وكما نرى في هذا الموضوع في إضفاء تحديث جديد لفلسفة المعرفة تساعدنا كثيراً في الطريق إلى نظريـــة معرفية شرقية أساسها فلسفة البيولوجيا ..

و قضية إرتباط " البيولوجيا " بمنطق الشرق القديم قضية سبق وأن تناولناها في بحوثٍ سابقة بالإمكان الرجوع إليها .. (٤)

يمكننا تلخيص و توضيح هذا الترابط الآن بإختصار كون الشرق القديم يعتمد على الإستدلال الحسي المعاين البسيط ، وما ينجم عنه من توجه بيولوجي صرف ، وليس الاستدلال المنطقي اللغوي الذي ظهر بعد أرسطو في اليونان القديمة ..

وهكذا نجد إن حييثيات المنطق الشرقي القديم كانت تنطلق من " إعادة الخلط " و " التزاوج " كمفاهيم أولية أساسية في تفسير الطبيعة ، إذ تتزوج الآلهة وتنجب كتمثل رمزي في الوعي القديم لدى الشرقيين في تفسير قوانين الطبيعة ..

الذي نجريه في هذا البحث هو إعادة إستخدام هذه المفاهيم لا في تفسير الطبيعة فقط و إنما استعمال مفاهيم الشرق وفلسفة البيولوجيا في تفسير ماهية الوعي والإدراك العقلي الإنساني .. إذ ستقودنا في النهاية إلى رسم صورة كبيرة جامعة علمية للطبيعة ، صورة جديدة ومختلفة في كثير من الأوجه عن صورتها الحالية المؤسسة في الغرب ..

هذا البحث وما سبقته من طروحات هو في النهاية محاولة في بناء نظرية معرفية شرقية خالصة .. تقود الشرق إلى العودة لإحتلال مكانه المعرفي في التاريخ ..

النتائج الهامة في التطبيق العلمي لهذا المنطق الذي تناولناه سابقاً تتعدى علم النفس كعلمٍ يدرس الظواهر النفسية والسلوكية الفردية إلى إرساء قواعد معرفية وفلسفية علمية جديدة إستناداً إليه كفلسفةٍ معرفيـــة جديدة تتناول دراسة الكون والوجود بكليته الفرديـة " الشخصـانية " و الاجتماعيـة الكونيـة " الكلانيـة " علـى حدٍ سـواء ، أي الجمع بين دراسة الوعي والعقل الفردي والوعي الجمعي للأمم أو الوعي والعقل

الكلاني الجامع لعموم الجنس البشري " العقل الكوني " وعلاقة هذا الأخير مع " الكون **Cosm** " ...

فالعلم المعاصر كان قد بدأ منذ اليوم الذي انفصل فيه عن الفلسفة قبل قرون .. خصوصاً علوم الفيزياء والرياضيات ، إذ ظهرت نظريات معرفية غربية في هذا المخاض .. كانت نتيجتها أن تصبح الفلسفة متأثرة بالعلوم وخصوصاً الرياضيات والفيزياء وليس العكس كما كان قبل عصر النهضة والتنوير .. أما اليوم ، وبعد إستخلاص طبيعة وماهية منطق الشرق ، فإن " علم النفس " أو العلوم العقلية بحاجة هي الأخرى للانفصال عن " الطب .. والكيمياء والفيزياء .. والفلسفة .." والتحول إلى علوم مستقلة تتأثر بها كل العلوم الأخرى .. !

وهذا يعني عملياً القيام بدمج كل من :علم الإجتماع و الإنثروبولوجيا وعلم النفس والتأريخ والفيزياء وعلم الأحياء في علمٍ واحد هو :

" علم الحياة الكوني **Universal biology**"... وسيكون فلسفة علم شرقية أيضاً ، بمنهجية وأدوات إجرائية نحاول في البحوث اللاحقة وضع أولى اللبنات في أسسها النظرية القائمة على الفلسفة البيولوجية والتي سبق ونادى بها " كارل بوبر "، وفي الطريق نحو هذا التوحيد ستكون أمامنا الكثير من المفاجئآت الجديدة ، خصوصاً ما يتعلق بأفكار " الطاوية " في الصين والبوذية والهندوسية في الهند ، إذ سنرى إن رمز الطاو المتمثل بقطب " الين **yin** " الأنثوي المظلم ذو النقطة البيضاء وقطب " اليانج **yang** " الذكري المضيء ذو النقطة السوداء ، خير ما يمثل الوعي الجمعي ، فهو يشبه هذا الرمز تماماً كما في الشكل التالي

الشكل (١)

الين الأنثوي المظلم و اليانج الذكري المنير

يكونان معاً عنصراً ثالثاً جامعاً عن طريق الحركة ...!

إذ يجسد الفردانية " السوداء" و الكلانية " البيضاء " وهما يكونان الوعي الكوني الجامع في تجسيد ديناميكي لمفهوم " إعادة الخلط " البيولوجي الذي سبق وتناولناه في بحث سابق (٥) ، إذ يمثل تحصيل هذا الدوران بين القطبين مع الزمن هوية ثالثة " حسب هيجل " هي الوعي الجمعي العام الذي يحرك التأريخ ويطور المعرفة الإنسانية بخط صاعد مفضياً بذلك إلى تطوير المجتمع البشري بصورة عامة (شكل ٢) .

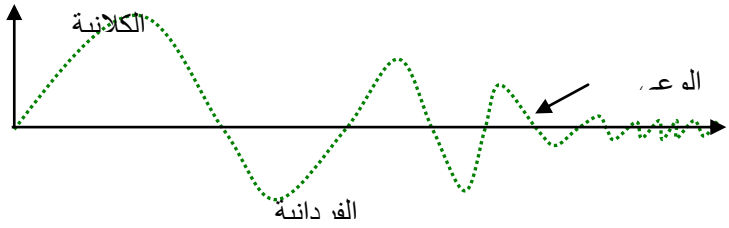

(شكل ٢)

تمثيل بياني لحركة " الوعي " الجمعي بين الكلانية " للأعلى " و الفردانية " للأسفل

إن الشكل (٣) يوضح مسألة في غاية الأهمية من المفروض أن نأخذها في الاعتبار من الآن فصاعداً في الطريق إلى علم نفسٍ كوني جديد ، وهي إن " الوعي " ... فردياً كان أو جمعياً إنما يتركب من حاصل " صيرورة " نوعين إثنين من الوعي : الوعي الفرداني ... أو " الين الأسود " وأدواته المتعلقة بالذاكرة والسلوك الفردي .... ممثلاً بالشعور حسب الرؤية الفرويدية .الوعي الكلاني ...أو " اليانغ الأبيض " وأدواته التي يستخدمها العقل من الذاكرة الجمعية " الخافية " ممثلاً باللاشعور حسب رؤية " يونج " .وهو بالمنطق التموزي يناظر " إنكي " الإله الحكيم المناظر للصورة الأصلية للكون " آن-كي) جبل الكون أو (كيان) ، إذ يتركب من " نقيضين " يستحيلان في هوية ثالثة حسب هيجل .بمعنى إن الوعي بصورة عامة ... كما يظهر في شكل (٣) بخط أخضر متعرج هو المتصل " الثالث " الذي يتمتع بخصائص الإدراك والعقل ، هذا " الكيان " الجديد حسب المنطق السومري والطاوي يتمتع بخصيصة " التجانس البنيوي " أو " الهولوغرام " إذ الجزء يكون عبارة عن صورة مصغرة من الكل ، بمعنى إن الوعي الفردي صورة مصغرة عن الوعي الجمعي ... و كلاهما يحمل نفس التفاصيل، وهذا ما لا نستطيع أن ندركه ونستوعبه إلا من خلال فلسفة علمية عقلية متجردة... نسميها في هذا البحث " فلسفة الوعي المجرد " ، نتاولها لاحقاً في " مقاييس الإدراك " .إن الحاجة إلى هذا العلم الجامع " الكلاني " لا تعني إقصاء العلوم المختصة في النفس و الإنثروبولوجيا وعلوم الطبيعة الأخرى ، ولكنها تحاول " معاضدة " هذه الإختصاصات بإقامة معرفة جديدة ، وعلومٍ جديدة تدرس العالم والطبيعة بما فيها العقل من زاوية جديدة عالية جداً، فتدرس التطور المعرفي والوجود بصورة كلانية جامعة ، وبأدوات معرفية متنوعة أيضاً ، إذ ستشكل في النهاية صورة جديدة مختلفة للعلوم كما سنرى في اللاحق ، تكوّن مع علوم الإختصاص في نطاق أوسع دائرة معرفية فلسفية – عقلية أكثر شمولاً و ثراء مما هي عليه اليوم ، و في نفس الوقت فهي ستجيب على العديد من الأسئلة الخالدة .

إن علم " البايو سايكوفيزيا " أو " علم الحياة الكوني **Universal biology**" كمصطلح نستخدمه في هذا البحث يشمل عموم المعرفة الكلانية الشرقية في صياغات ومفاهيم ونظرية معرفية جديدة للحياة والوعي والطبيعة تعيد كتابة المعرفة إنطلاقاً من الفلسفة البيولوجية وليدة " المنطق الشرقي " بحيث إن الصورة النهائية الناتجة هي " إعادة خلط " أو " تلاقح " بين مفاهيم الشرق الكلية ومفاهيم الغرب الفردانية ، ومع إن الصياغة النهائية تحصيلية بين الغرب والشرق ، لكنها ستتخذ من المفاهيم الفلسفية للميثولوجيا الشرقية محوراً ، وستؤكد في النهاية العودة إلى الرؤية الشرقية القديمة للطبيعة الكلية بأنها :

حياة.. ووعي كبير جامع .. ، في نفس الوقت سنكشف عن الجديد في الموضوع ونضيف بأن هذا الوعي الكبير مكونٌ أصلاً من " لبنات " وعي ذرية.. هي الأخرى مؤلفة من لبنات .. وهكذا ... فالكون برمته " وعي " مؤلف من وعي ذري متعدد.. و كل وعي ذري مكون من لبنات وعي دونه وصولاً إلى الخلية الحية التي تنطوي فيها صفات القانون الأساسي.. إجتماع التناقض .. بوجود شريطي الـ(**DNA**) ..

وسبق وأن بينا في بحث (الوعي الجمعي) إن الشرق إنطلق من " النفس " بوصفها محوراً أساسياً في المعرفة والنظرة للطبيعة ، إذ الطبيعة كانت حية وتمثلت تلك الحياة بالآلهة أو الملائكة في الميثولوجيا القديمة ، فيما الغرب إنطلق من الطبيعة كجماد ميت ، ولا يزال ماضياً في خط التطور المعاصر، نعتقد أن الأوان قد أزف لعودة " الوعي " إلى الصدارة في المعرفة الطبيعية بعدّ الوجود برمته " وعياً " كبيراً جامعاً يتركب من " أجزاء " من الوعي الفردي، والأممي، و الكوني ، أي الانطلاق من " الطفولة " التي كانت ترى في كل شيء حياةً ووعياً .

البدء من البدايـــــة .. !

فالقوانين الطبيعية في فكر الشرق القديم كانت " آلهة " أو " ملائكة " ، أي أنفساً كونيةً عليا ، وفي منهجيتنا الجديدة التي نبغي تأسيسها ، و إستكمالاً لما سبقنا به من بحث ، فإننا لن نعد تراث الشرق مجرد " ميثولوجيا " أو أساطير حاول الإنسان بها

الإجابة عن الأسئلة الخوالد بما يتعلق بالإنسان والعقل وتفسير الطبيعة ، وإنما هي " إستشراف " ومحاولة أولية في تفسير العالم " الباطني " الذي قال عنه الشرق قديماً : (وفيك إنطوى العالم الأكبر) .

إن الطريق إلى فلسفة علم بيولوجية جديدة عامة الآفاق تشمل دراسة الطبيعة والوعي أيضاً ، نكون قد بدأنا به إنطلاقاً من المنطق السومري الأول الذي أسميناه " منطق الشرق " مستعينين بمنهجية " بوبر" في الاستقراء العلمي على وقع " الفلسفة البيولوجية " ، إذ إنها فلسفة " تطوي " في تكويناتها الموروثة العالم الأكبر ، وهي خصائص " التجانس البنيوي " في المنطق الطبيعي الأول ، وهي في نفس الوقت فلسفة " ديناميكية " حركية .. تبني نتائجها على اكتمال الصورة النهائية للنشاطات الطبيعية المختلفة كما يرسمها " هيجل " وليست " إستاتيكية " ثابتة تنطلق من ثوابت الرؤية الرياضية للفيزياء للحكم على الوقائع الكونية بما فيها " الوعي " و " العقل "، فالرياضيات وكما سنرى ستشكل " جزءاً " أو قطباً متغيراً حسب مبدأ إعادة الخلط العام ... لتكوين البناء المعرفي والفلسفي لعلم النفس الشرقي أو ما يمكن أن نسميه " البايو سايكوفيزيا " أو " علم الحياة الكوني **Universal biology**" .

هندسة الإدراك البشري

مقاييس الإدراك: نعود إلى ما بدأنا به من قبل ، كيف بالإمكان تطوير " إستخدام " العقل بإذ يكون بالإمكان فهم " العقل " و" الوعي " فهماً مثمراً يقرب الصورة ولا يتركها بعيدة عن مستويات وعينا المعرفي الحالي ؟

وهو ما يعني إننا نحتاج أولاً إلى الارتقاء بمستوى الوعي البسيط للوصول إلى مرحلة تمكننا من تفسير أهم الظواهر الغامضة المتعلقة بالعقل .

إن هذا يتطلب منا إبتكار أدوات جديدة في الإستدلال والإستقراء ، أدوات " ما بعد عقلية " قابلة للاستيعاب بالوعي بحيث تقوم بدور " ترويض " الوعي البسيط للوصول به إلى مرحلة جديدة متقدمة من الإدراك ، مستعينين كما قدمنا بالمنطق

الشرقي " الديناميكي " العام .إن أهم ما نحتاجه في هذا الطريق هو " رياضيات " ذهنية إدراكية جديدة نابعة من الخيال العقلي وليست الرياضيات الناتجة عن المنطق اللغوي ، الرياضيات التقليدية الصورية المعروفة، فالرياضيات التقليدية وليدة طبيعية للغة، وهي لغة من نوع آخر، لا تثير إنطباعات تصورية في الذهن..لكنها موثوقة من خلال التجريب والاختبار للنظريات والفرضيات العلمية في المجال البحثي، ومثلما بينا إن " البيولوجيا " لديها لغتها أيضاً والتي تطابق المنطق البديهي " الطفولي " أو الشرقي القديم..فإن محاولة جمع الصورة بين المنطق " الرياضي التقليدي " مع المنطق الطبيعي الأول بالطريقة المعتمدة على الفلسفة البيولوجية ستعطينا فرصة تأريخية لرؤية أشياء جديدة ..

والطريق لإشتقاق " الرياضيات الإدراكية " يبدأ من محاولتنا " وصف " ماهية الإدراك قبل أن نستعمل قوانين الإستدلال البيولوجية المنطوية في العلاقات العامة للقوانين الطبيعية ، فعلم النفس المعروف يحاول " التفسير " كما تفعل الفلسفة ، لكن العلوم أخذت على عاتقها مسؤولية " وصف " الظواهر الطبيعية لا تفسيرها... ومن هذه المذاهب العلمية الداعية لهذا التوجه " الوضعية المنطقية " .. وفي موضوع الإدراك سنلجأ إلى وصف الإدراك لا تفسيره ..

الوصف العام الإدراك

الإدراك ... ببساطة .. وبإختصار { هو العملية التي يصبح فيها المرء واعياً على الفور لشيء ما ويقال للإدراك حسيا عندما يكون ذلك الشيء الذي نعيه على الفور هو الشيء الذي يؤثر في أحد أعضاء الحس لدينا } (٦) ، عملية " تقويم " يجريها العقل للأشياء في العالم المحيط ، وهي تجري بواسطة المقارنة مع معطيات " عقلية " ذاتية أو داخلية تعلمها المرء في حياته مكتسباً إياها من الممارسة الحياتية في البيئة الاجتماعية ، ما يعني أن هذه المعطيات الذاتية في العقل تحصيل حاصل ، أو تلاقح ، أو صيرورة ديناميكية تفاعلية بين الموروث البيولوجي " الحيوي " المتمثل بالتكوين الجسدي وتأثيره على التفكير ، وبين الموروث الإجتماعي الذي يقوم ببرمجة العقل

الفردي ، تجري هذه الصيرورة عبر فاعلية " وعي " ذاتي ... وموضوعة هل أن الوعي الذاتي جاء من هذه الصيرورة أو إن الصيرورة جائت من هذا الوعي فهي مثل قصة البيضة والدجاجة ، نحيد عنها ، لأننا سنصف الإدراك ولن نفسره ، فنحن سنحاول قدر ما نستطيع إنتشال " علم النفس " من هلامية الفلسفة إلى محدودية معرفية قابلة للفهم والتطوير والإثمار .والإدراك على هذا النحو هو معايرة العقل للأشياء والحوادث نسبة إلى مرجعية أساسية يستعملها العقل الفردي في القياس وبصورة " لاشعورية " غالباً ، هذه المرجعية يمكننا تسميتها بـ" الإطار " **framework** كمصطلح ومفهوم عام إستعمله كارل بوبر بدلالة أخرى ، سنحاول تضييق هذا المفهوم بتخصيص إستعماله في مجال " الإدراك " ، إذ سيكون لدينا في تصنيف الإدراك والوعي إطارات عدة ، منها إطارات القياس الحجمي ، ونقصد بها المظهر العام الذي يقوم به الفرد لمعايرة الحجوم وتحديد الكبير منها والصغير ، والإطار الزماني إذ يحدد في ضوئه معايرة الحوادث قديمة وحديثة ... ومستقبلية ، والإطار الكتلي إذ يحدد الأشياء الثقيلة والخفيفة ، والإطار اللوني ... وهو إطار طبيعي يميز بموجبه الألوان إستناداً إلى مرجعية الألوان السبعة في الطيف الشمسي والتي تحمل " هوية " حسية طبيعية لدى الإدراك الفردي وهي الألوان السبعة ... وهكذا بالنسبة للأصوات وغيرها من المحسوسات والمدركات التي يتعامل معها الوعي الإنساني . ولنبدأ أولاً بالإطار الإدراكي الحجمي ، كيف يمكننا وصفه ؟

الإطار الإدراكي الحجمي ... والإطار الإدراكي الحركي

بالنسبة للإطار الحجمي فهو إطار يأخذ الشكل المخروطي أو الهرمي ، كما في الشكل (٣)

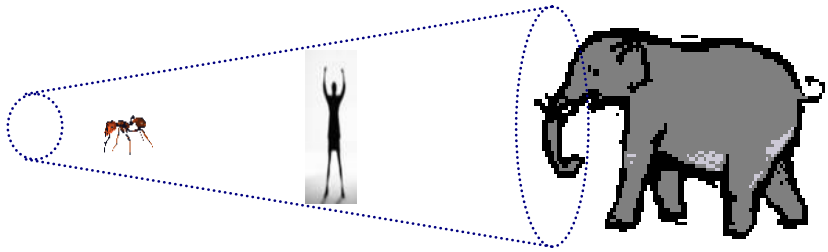

شكل (٣)

المقياس (الإطار) الإدراكي المخروطي الحجمي الطبيعي " العقلي "

في هذا المقياس المخروطي ، نلاحظ إن الفرد البشري يحدد في ضوء مرجعية " حجم " الجسد الإعتيادي الخاص به (هو) كفرد واقع إدراك الأشياء بتسميتها ... كبيرة أو صغيرة ..

فالأشياء التي هي أكبر من جسمه ، أو التي يشعر بأنها أكبر حجماً .. يدركها بأنها كبيرة مثل الفيل في الشكل السابق وذلك إعتماداً على مقارنة " لاشعورية " درج العقل بالتعامل بها طيلة فترة الحياة ، أما الأشياء التي هي أصغر من جسده فندركها بأنها صغيرة مثل النملة في الشكل نفسه ، وبالتالي فإن هذا " المخروط " الإدراكي العقلي يمكننا تسميته " المخروط الحسي " ، وهذا المخروط هو الواقع الفعلي لكل المقاييس الحسية الأخرى ، وليست الحجوم فقط ، حتى السرعة في الحركة ...

وفي موضوع " مخروط قياس السرعة " لدى الوعي البشري نحتاج للتوقف قليلاً فمسألة السرعة هي أكثر المدركات غموضاً ، ويصعب تصورها في مخروط إدراكي مثل المخروط الحجمي السابق ، ذلك أن مرجعية الحجم .. هي حجم الجسد ، لكن ما مرجعية مقايسة السرعة في اللاشعور ؟

في الحقيقة إن النشاط البيولوجي الحسي العام المتضمن لسرعة الإشارات العصبية في الجسد بين الدماغ و سائر الأعضاء والبالغة بمعدل (١٠٠ متر/ثانية) وكذلك نشاط الدورة الدموية ... والتنفس ، هذه العوامل كلها تشكل مرجعية لاشعورية

بمقايسة السرعات البطيئة منها والسريعة لكنها تتخذ وضعاً مقلوباً بالنسبة للحجم ، إذ إن الأشياء الدقيقة الصغيرة حجمياً خصوصاً الحشرات ... والبكتريا ... والإلكترونات ... و فوتونات الضوء تكون بالنسبة للإدراك سريعة الحركة ...أي تحوز سرعة " أكبر " فيما الأجسام الكبيرة تكون أكثر بطئاً مثل الحيوانات الضخمة وهي تتهادى بحركتها أو الأجرام السماوية مثل كوكب الأرض وهو يدور حول نفسه ببطيء شديد بزمنٍ مدته أربعاً وعشرين ساعة ليكمل دورة واحدة فقط قياساً بالإلكترون الذي يدور حول النواة بما يقارب المليار دورة في الثانية ...!

لاحظ الشكل (٤) :

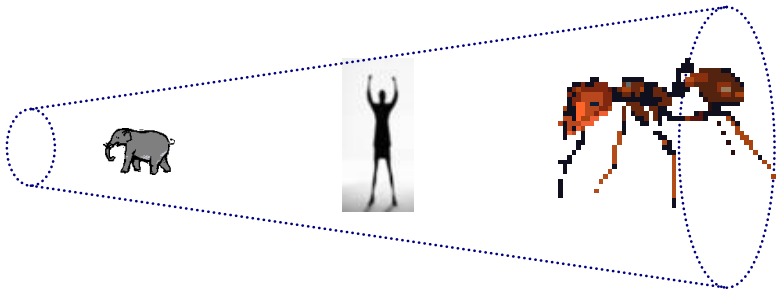

شكل (٤)

" مقياس (إطار) إدراك السرعة المخروطي "

فحقيقة ، نحن نستطيع التمييز بوعينا الاعتيادي إن " الذبابة " تمتلك قابلية فائقة سرعة تحريك الأجنحة ، ولطالما نتأمل النملة وهي تتحرك بسرعة عالية رغم صغر حجمها وصغر المسافة ، و السؤآل هو :

لو امتلكت النملة وعينا التقليدي بالإدراك للحجوم والسرعات ، هل سترى نفسها سريعة وصغيرة كما نراها نحن ؟

مؤكد أن هذه النملة سترى نفسها مثلما نرى أنفسنا نحن ، حالة نسميها " طبيعية " أو " إعتيادية " ، فيما سترى الإنسان كالجبل البطيء نوعاً ما في حركته وسلوكه

وعليه فإن قياس الزمن برمته مرهون بمرجعية النشاط الحيوي للجسد ، وليس قيمة فيزيائية " مطلقة " لا يمكن تجاوزها ، ولو تأملنا الوحدات التي يقاس بها الزمن والمسافة ندرك هذه الحقيقة بوضوح ..

فوحدة المسافة الأساسية هي " المتر " ، وهي مقاربة لطول الذراع البشرية ، كانت في الماضي تدعى " ذراع " ، وكذلك الدقيقة الزمنية ، فهي تمتلك من الثواني ما يقترب من عدد ضربات القلب في الدقيقة الواحدة ، ولو أنصتنا بهدوء في غرفة لصوت الساعة وهي تعد الثواني للدقيقة ندرك مدى الإقتراب من صوت دقات القلب في هذه الدقيقة ، فمعدل ضربات القلب تقريباً (٧٠) ضربة /دقيقة ، أما الثواني فهي (٦٠ ثانية / دقيقة) ...

هذا المثال ينطبق على الحرارة أيضاً ، فالشائع لدى العقل " الغربي " الإستاتيكي الحسي إن الكون الذي بدأ بإنفجار عظيم ، أو دويٍ أعظم كان " ساخناً " جداً في البداية ...!

إن هذه العبارة المستخدمة في الفيزياء اليوم " كان الكون ساخناً " مضحكة جداً بمقياس الفيزياء النفسية " السايكوفيزيا " ، فالسخونة نسبية .. وتنسب إلى واقع الحس الجسدي البشري ، وهو بالتأكيد سيعد فوتونات الضوء الأولى التي كانت تحوي طاقة عالية تعادل طاقة " الأشعة الكونية " هي من السخونة ما يصعب علينا تصور واقع الطبيعة في تلك اللحظة من الوجود ، لكنها تبقى سخونة نسبية .. معايرة بمدى تحديد الجهاز الحسي الجسدي لها ساخنة أو باردة أو معتدلة ، لكنها بمقياس مجرد ... عبارة عن موجات طاقة !

كذلك الزمن ، فيما يعرف بفيزياء الدقائق الأولى لولادة الكون ، هي الأخرى ستكون فيزياء ساذجة إذ تركز إهتمامها وتولي عامل المدة التي إستغرقتها التحولات الأولى دون أن تركز البحث في " المسار " الذي تتخذه هذه التحولات .

فالزمن ، والحجم ، والمسافة ... كلها معايير للعقل الحسي ، وفي منهج السايكوفيزيا سنعيد تعريف وقراءة الكون بمعايرة جديدة هي المعايرة المجردة ، بإستعمال إطار إفتراضي جديد ... وهو " الإسطوانة الإدراكية " .

الإطار الإدراكي المجرد (إسطوانة الإدراك)

إن هذه الإسطوانة التي تظهر في الشكل (٥) ، تبين " إنهيار" البنية الفيزيائية التقليدية ذلك أن الحجوم تتحول إلى مجرد " صور " ما هوية لا تعبر عن التمايز الحجمي فيما بينها أية دالة قياس ، كذلك السرعة للجسم في حركته في المكان... فهي تتحول إلى مجرد مسارٍ " خط " في المكان ..!

وهذه بالضبط صورة الكون حسب النظرية النسبية الخاصة **Relativity Theory** والنتائج التي أدت إليها إذ ظهر مفهوم الفضاء- زمن كمتصل بين المكان والزمان ، وكما لاحظنا فإن مقياس الإدراك المجرد العام و الذي يشمل الحجوم والسرعات يعيد رسم الكون والبناء المادي العام للطبيعة ويحيله إلى " مسارات " .

شكل (٥)

المقياس " الإدراكي " الإسطواني التجردي العام

" ما بعد العقل "

أسطورة الإطار الحسي الفردي (الخدعة الذاتية)

إن هذا الإطار الجديد في رؤية العالم يعتمد على العقل البسيط ولكن بالإستعانة بأدوات معرفية جديدة على غرار الإحداثيات المتعامدة، التي شاركت في بلورة تصور جديد للذهن عن العمليات الطبيعية فيما يتعلق بالهندسة خصوصاً خلال ثلاثمائة عامٍ مضت، وهذه المقاييس الإدراكية الجديدة بصورة عامة تساعد الذهن لبناء تصور جديد عن الطبيعة المحيطة بالإنسان وعن "العقل" البشري نفسه وستضع الكثير من النقاط على الحروف في البيولوجيا والنفس والفيزياء.. وتتميز هذه المقاييس بإعتمادها على وضع " المرجعية " البيولوجية للإدراك ضمن مقاييسها الجديدة واعتبار " التجرد العقلي " محوراً للقياس وليس باعتبار المرجعية البيولوجية محوراً في القياس كحال الفيزياء التقليدية في رسم العالم كما سنرى في اللاحق.المخطط التالي (شكل (٦)) يمثل علاقة الإحداثيات المتعامدة مع مخروط الإدراك الحجمي ، نلاحظ إننا نستطيع تصور بنية جديدة للإدراك بواسطة دمج المقياسين معاً وسنناقش هذا الآن .

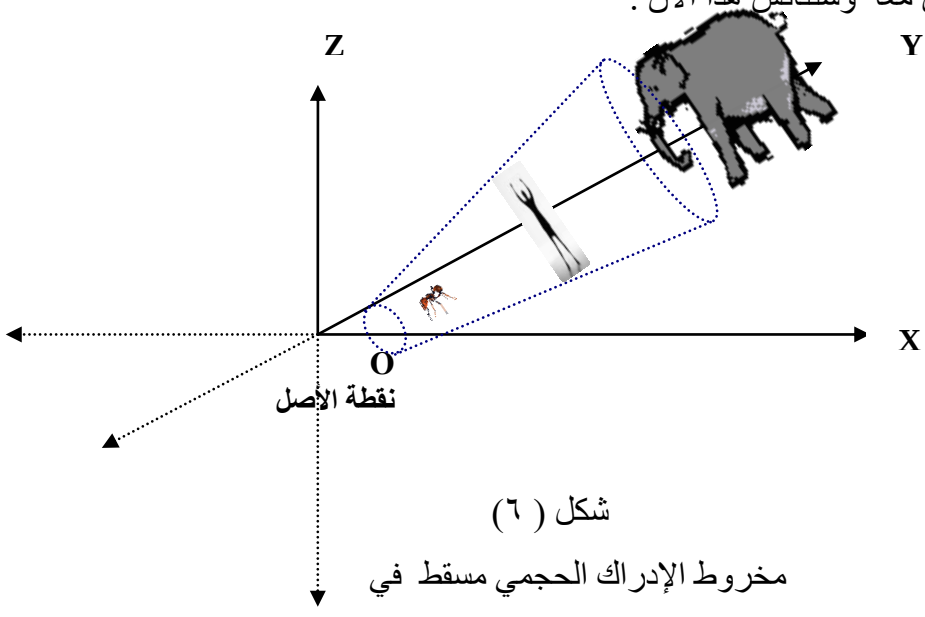

شكل (٦)

مخروط الإدراك الحجمي مسقط في

الإحداثيات الديكارتية المتعامدة في نقطة الأصل

(الصفر)

فالعقل البشري ، وبواسطة الوعي الحسي الاعتيادي يبني العالم المحسوس بواسطة المعطيات الداخلة للعقل عبر الحواس في نسق هرمي أو مخروطي ، كما في الشكل (٦) إذ نرى الفيل في قاعدة هرم أو مخروط الإدراك وهي أبعد عن نقطة الأصل ، هذه القاعدة تزداد مساحتها كلما كان الجسم كبيراً وكذلك تزيد مسافة إبتعادها عن الحجم (صفر) الموجود في نقطة الأصل تبعاً لذلك ... إذ النملة أقرب للصفر من الفيل حسب المخروط ، والخلية البكتيرية أقرب .... والإلكترون أقرب ... و الفوتون أقرب ... وأي جسم أصغر يعد أقرب ... ولكن ..؟!

لا يوجد حجم يعادل (صفر) فالصفر تعني العدم ، ونرى من خلال مناهج التفكير الأرسطية إصرار العقل على تصور العالم قد ولد من (عدم) ، لكننا حينما نتأمل مقاييس الإدراك هذه نقترب من التفكير في أن اعتبار كتلة الفوتون السكونية مثلاً مساوية للصفر أمرٌ غير مقبول للإدراك المجرد ، أي المقياس الإسطواني للإدراك ، فيما هو سهل بالنسبة للمقياس المخروطي ، إذ هناك نقطة تلاشي للقياس تمثل قمة المخروط وتقع في نقطة الأصل ... و الفوتون كجسم حسب الميكانيك الكمي (الكوانتي **Quantic**) له كتلة سكونية تساوي الصفر ، وسواء في الحجم أو الكتلة ... لا يضر عدّ هذا الجسم حالة وسطى بين المادة و اللامادة بهذا العدّ ، فالذهن البشري المؤسس وفق معايير الحضارة الغربية العلمية الراهنة يتصور إن " الجسد البشري " هو محور الإدراك والحقيقة الكونية الأولى التي تصح بها فقط المعايرة ، ولا يمكن لهذا العقل تقبل فكرة إن هذه المعايرة المخروطية ... مجرد خدعة كونية كبرى ...!!

وإن عدّ كتلة أو حجم الدقائق الأولية " صفر " مثل الفوتونات مجرد " أمل " عابث لنرجسية العقل الغربي في إدراك البداية والنهاية ...!

فيما نرى أن الإحداثيات تزول أصلاً بعد أن تتلاشى نقطة الأصل (العدم) من الوجود نهائياً ، فالعدم ... هو العدم نفسه ، ولا يوجد عدم بالمعنى المجرد وفق المقياس الإسطواني الذي إذا ما أسقط في الإحداثيات الثلاث فهو " يفك " التعامد فيما

بينها ، ويحولها إلى مجرد أشباح من الخطوط المتوازية التي لا تعني أي قيمة هندسية .... شكل (٧) :

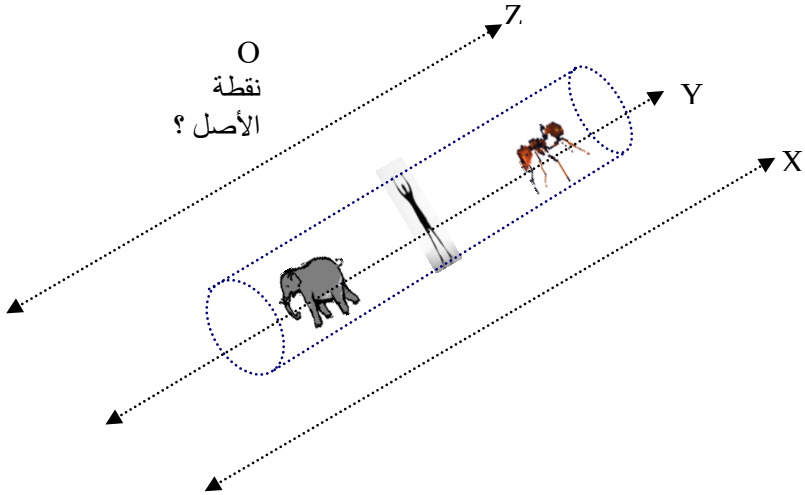

شكل (٧)

الإحداثيات الثلاث مفتوحة التعامد بسبب إسقاط

مقياس إدراكي إسطواني للحجوم

هندسة الإدراك .... والطريق إلى فيزياء كونية جديدة

إن هذا التحرير للعقل من استعباد الجسد المزمن وتأثر العقول بمرجعية قياسه هو الذي يتيح أمامنا الفرصة لتوقعات أكثر نفاذاً في " الذرة " و العالم " دون الذري " ، لا نقول إنها ستصبح البديل عن الفيزياء ولكنها ستساعد في وضع تصورات أولية لنظريات جديدة قد ترسمُ لخطوطٍ جديدةٍ في الفيزياء النظرية ، فالفوتون لو كان جسماً بحق ، لا يمكن أن تكون كتلته السكونية صفراً، ولكن، وكما سنرى لاحقاً ، إن مفاهيم الكتلة والزمن والحجم بحد ذاتها سنعيد النظر فيهما وفق مقاييس جديدة .

وما يهمنا الآن هو إننا سنعيد بناء " العالم " وفق قابلية إدراكية عقلية ، وليس وفق معادلات رياضية فقط ، فهي وإن كانت مجردة لكن لا يفهمها الوعي ... وبمثابة حدود محرمة في المعرفة على الإدراك ، وسنرى إن النتائج التي سنتوصل إليها بواسطة الإدراك الإسطواني السايكوفيزيائي تتفق مع النظرية النسبية الخاصة في تقلص الطول وتباطؤ أو تسارع الزمن أو تزايد وتناقص الكتلة مع زيادة أو نقصان الزمن ، لكننا سنختلف معها في وجوهٍ أخرى كانت قد عممت الصورة عنها دون أدلة تجريبية . فعندما نعود إلى الشكل (٧) السابق ، ماذا يعني أن تكون السرعة غير ذات قيمة وكذلك الحجوم للأجسام ؟

فكوكب الأرض مثلاً ... الذي يدور حول الشمس دورة واحدة كل ٣٦٥ يوم ، يتكون من ذرات ذات إلكترونات تدور ما يقارب مليار دورة في الثانية حول النواة وهذه الثوابت في السرعة ذات مرجعية تعتبر من الجسد محوراً للإدراك، ماذا يعني أن تتساوى هذه الذرات الصغيرة بالمقياس الحسي مع المجرات الكبيرة في الحركة والحجم ؟ إن هذا يعني تحطم البنية العامة للأجسام الكبيرة مثل الأرض والنجوم والمجرات ، فبالمقياس الإسطواني فإن تجمع الذرات أصلاً هو الذي شكل المجرات ، وبالتالي فالمجرات مجرد خطوط وصورة وهمية رسمتها الذرات بالتجمع ، وكذلك الذرات نفسها ، فهي الأخرى صورة وهمية لأجزاء أصغر كونتها .... وهكذا ... نستمر إلى مالانهاية .. إذ يتحول الكون كله إلى مجرد " خطوط " من الملامح المادية ... لكنها ليست مادية بالمعنى المجرد ، فهي مجرد " صور " أو تشوهات في الإدراك ...!

فلحظة الإنفجار الكوني بما يعرف بالدوي العظيم **Big Bang** الذي خلق منه الكون مجرد " صورة " في الإدراك ناتجة عن تشوه إدراكي يرسم الكون بهذه الطريقة ، فلا توجد بهذا المقياس لحظة إسمها البداية ... أو الثانية الأولى ... فالكون مجرد " مسارات " من التحولات (الأزلية) المتتابعة ، ليس فيها ماضٍ أو حاضرٍ أو مستقبل ، فالإلكترونات حسب هذه النظرية قد تكونت خلال مدة قصيرة جداً من

الزمن تبعتها البروتونات وتكونت بعدها الذرات على خلفية ذلك الإنفجار ... لكن ... بالمقياس الإسطواني ... بالنسبة للحجوم والكتل والسرعة فإن مدة تجمع الأشعة الكونية قبل الإنفجار لا تعني شيئاً ... وكذلك الحرارة أو الطاقة ، وكذلك معنى أن يكون هناك إلكترون في ذرة أو إلكترون مستقل .. فالنتيجة إن الصورة الأولى للوجود ... هي نفس صورة التحول النهائي التي يحاول الإدراك الحسي العادي (المخروطي) توقعها بواسطة الفيزياء ، بمعنى ، إن الصور اللاحقة من إجتماع الإلكترونات مع البروتونات لبناء الذرة ... أسبق من صورة الإلكترون أو البروتون منفردين عن بعضهما .....!!!

أي إن : الدوي العظيم وكما صورته لنا فيزياء القرن العشرين ، هو تصور " مقلوب " لحقيقة " المحصلة " لما يجري في الكون ... وإن التباعد الحالي بين المجرات ... وما قد يحدث في الكون من تغيرات بعد مليارات من السنين ما هو في الحقيقة إلا الصورة الأولى ... الخالدة ..

الأزلية وفق الإدراك الإسطواني ، فالكون الأول ، كي – آن حسب الأسطورة السومرية المكون من جبل الكون ينفصل فيما بعد إلى جزئين .....

والكون الأولي حسب الدوي الأعظم تكون من جزئين أساسيين .... الإلكترونات ... والبروتونات فضلاً عن نيوترونات متعادلة تجمعت في تكون " كيان " الذرة ، وبالتالي الكيان الكوني العام ، لكن وفق رؤية الإسطوانة ... نحن نتقدم نحو " الماضي " ولقد تركنا المستقبل وراءنا لحظة الإنفجار العظيم ...! وهذا يعني إن العقل الأول " السومري " كان يفكر بطريقة سالبة تماماً ، وهو ما توصلنا إليه عبر تحليل المنطق الذي صيغت به الخليقة السومرية " حينوما عيليش " ، فالأحداث التي ترويها (الخليقة) تجري بتتابع معكوس للأحداث التي يدركها العقل المخروطي ..بمعنى إننا أمام ظاهرة بول ديراك مرة أخرى ولكن مع الزمن السالب !

ماذا يعني كل هذا ...؟ على الرغم من إن الصورة التي ترسمها الإسطوانة الإدراكية غريبة ... ومناقضة تماما للصورة المألوفة عن الزمن والصيرورة ، لكن إستعمال

فرضية بناء على التناقض التي أفاد منها ديراك سابقاً ، تسوغ لنا المحاولة بفرض الآتي :

ماذا لو كان الإدراك العقلي الطبيعي (المخروطي) يسير نحو الماضي .... بمعنى أن الشعور مجرد " عودة " في الزمن وليس بتقدم ؟ وهي صورة " مخروطية " أيضاً للإدراك ... ولكنها " سلبية " للحواس !

شريط فيلم الحياة عندها يكون من السهل تخيله ، وبدلاً من فلكٍ يدور حول الشمس .. ومجرات تتباعد ... تكون الصورة هي مجرات تتقارب ، حد التصادم ، وأفلاكٍ تنحل من محيط دورانها ... لتسقط في الشمس ...التي تتبعثر إلى غازات تنحل إلى جزيئات هيدروجين.... تنحل بدورها إلى إلكترونات وبروتونات ونيوترونات .. تنحل إلى الأشعة الكونية .....و .... إلخ .

لنتأمل قليلاً الشكل (٨) ، سنرى أن الفيل والنملة يلتقيان في قمة المخروطين في حالة قمنا بجمعهما سوية ، وهي تشبه حالة إلتقائهما في المقياس " الإسطواني " للإدراك ..

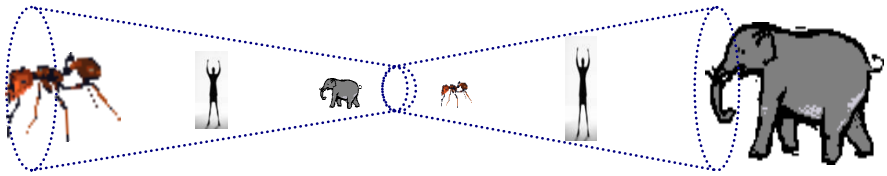

شكل (٨)

الفضاء الموجب والفضاء السالب

بمقياسٍ مخروطي

وهذا يعني ... أن الماضي والحاضر والمستقبل ... جميعها موجودة بالنسبة للإدراك الإسطواني المجرد ، وإن أحداث الكون تجري بإتجاهين متناقضين .... اتجاه نحو المستقبل ، و اتجاهٌ آخر نحو الماضي ، ونقول تجري بناءً على طبيعة " الإدراك " ، فإدراكنا الحالي هو إدراك موجب وقد تكون هناك كائنات واعية أخرى لديها إدراك سالب ، فالزمن الذي يشير إلى " تفرق " الأضداد عن بعضها هو الزمن السالب .. فيما الزمن الطبيعي الذي ندركه هو الذي يجمع ما بين الأضداد في صورة ثالثة ... تكوين الذرة ... تكوين المجرات ... تكوين الأسرة تكوين المجتمعات ..إلخ .لكن النتيجة في النهاية، إن افتراق الأضداد و اجتماعها ... و الانفجار الكوني وما قبله ، ونهاية الكون وبدايته ما هي إلا " مسارات " دائرية يدور فيها الإدراك الذي يحسب أنه يجري في خط مستقيم ، إنها خدعة كونية إدراكية كبرى ... تذكرنا بالخدعة الحسية القديمة التي كان الناس يعتقدون فيها إن الأرض مسطحة حتى تمكن الإنسان من الدوران حول محيط الأرض ... ومع ذلك لم يصدق الناس إن الأرض كروية حتى ظهرت للأرض صورٌ ملتقطة بالأقمار الصناعية ، ورغم ذلك لا يزال بعضٌ من الناس غير مقتنعين بذلك ...!

مقياس الإدراك الإسطواني يخبرنا بأن الزمن " دائري " ، والأحداث الكونية مخزونة بهيئة قرص مدمج (ثلاثي الأبعاد) فيما الوعي البشري يسير بالإتجاه الموجب للزمن ، ومن الممكن أن يحدث في يومٍ من الأيام أن يحدث العكس ... ونعود لإدراك سالبٍ للزمن .. نحو الماضي ، وهذا ما طرحته نتائج النظرية النسبية الخاصة .وكذلك زيادة الطول ... أو الكتلة اعتماداً على سرعة الجسم ... إنما تضعنا في صورة الفضائين السابقين ، فالسرعة حسب المقياس الإسطواني لا وجود لها ، توجد " مسارات " للأجسام المتحركة بين الماضي والحاضر تلتقي مع بعضها في تكوين دائري ، وكذلك الحجوم إنما هي " صور " ناتجة عن الوعي المخروطي ، أما الكتل فهي ناتجة عن المسار الطبيعي لتتابع هذه الصور مع الزمن ...ففي الشكل (٩) نلاحظ إن " صورة " الفيل ثلاثية الأبعاد وفق الإدراك المخروطي تتجه نحو نقطة

الأصل بفعل الجاذبية وهو ما يعطي قيمة لكتلها اعتماداً على كتلة الأرض ، لكن في الصورة المجاورة بالمقياس الإسطواني فإن " صورة " الفيل تتجه بالمسار الحتمي الطبيعي للصورة .... الفجوة " المخفية " عن الإدراك ، فالجاذبية وفق هذا المقياس مجرد مسار نحو .... الزمن السالب !

هذه النقطة تحتاج منا الآن للتوقف عندها قليلاً ...

فالوعي ... والإدراك المخروطي للعقل الحسي يدرك من الزمن ما هو موجب ، و بالأحرى ما نتصوره نحن موجباً وهو الاتجاه الذي يجمع بين الأضداد لتكوين البنى الكونية والوجودية المختلفة ، فيما إن " الصور " ثلاثية الأبعاد لهذه البنى تسير باتجاه طبيعي مع الزمن السالب ... أي أن وعينا الحسي يشاهد عرض الفيلم الذي نسميه الحياة وهو فيلم ثلاثي الأبعاد نعيش ضمن أحداثه ، لكن أجسادنا وبقية الأجسام تحاول الابتعاد عن هذا " الوعي " نحو نقطة الأصل ... بما نسميه الجاذبية، التي تجمعها عبر " فجوات " المكان نحو المسار الطبيعي للحركة الكونية... في مسار الزمن الدائري ، إذ ان التجمع للكتل على بعضها هو الاستقرار بأقرب مكان نحو " النهاية " التي تكـــون بعدها بداية جديدة للمسار ، أي نقطة الأصل في القياس المخروطي الموجب ، والتي تمثل ممراً يجري إلى زمنٍ يناقض تصورنا تماماً ..

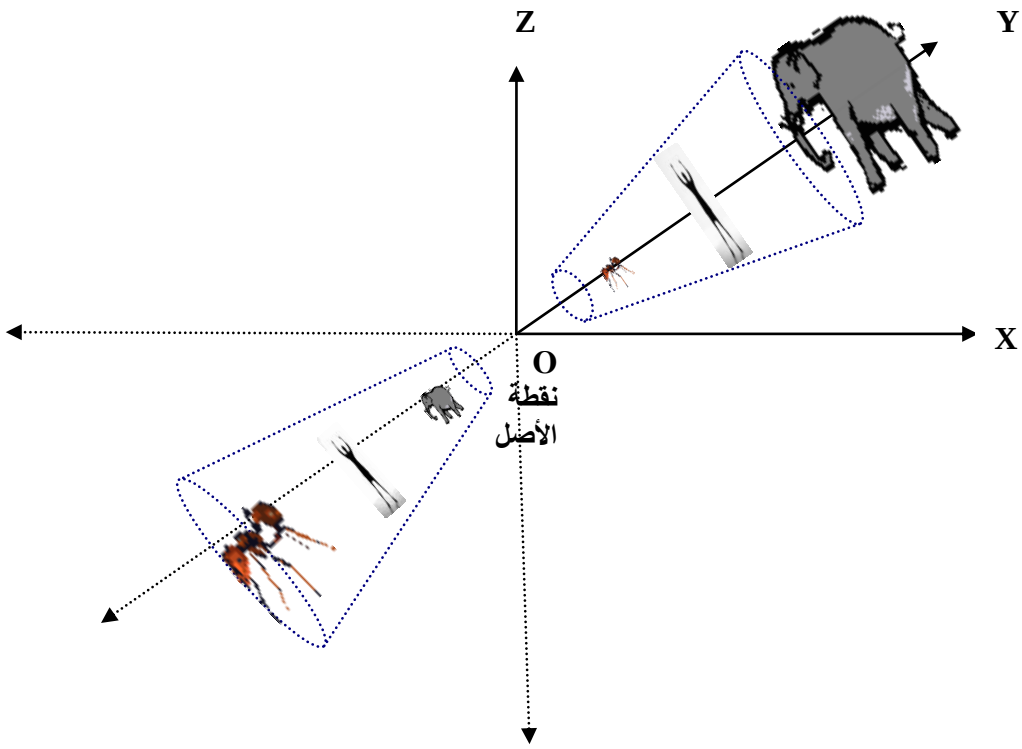

شكل (٩)

الفيل وبقية الأجسام تتجه نحو الزمن السالب

والنظرية النسبية الخاصة بينت أن الجاذبية تشوه في المكان وليست مجالاً ينتقل بقوة جزيئآت دقيقة تدعى الكرافيتونات كما يتصور العقل المخروطي النظري في الغرب اليوم ، إذ الأبحاث تجري على قدم وساق في الولايات المتحدة بما يعرف بأبحاث " الجاذبية الفائقة " ، والتي تتوقع بعض توجهاتها إن للجاذبية مجالٌ مثل المجال المغناطيسي والكهربائي يدعى المجال الجاذبي ، لكن كيف يمكن أن تكون الجاذبية ... هي القوة الأساسية " الجوهرية " في الكون وفق المقياس الإسطواني للإدراك ..؟ وماذا تعنيه فوتونات الضوء .... والمجال الكهربائي ... والمجال المغناطيسي بالنسبة له ؟ وماذا تعني القوى الأخرى ... كالقوية ... والضعيفة الموجودة في النواة الذرية ؟ في الحقيقة إن لغة الفيزياء هي الرياضيات ... وليس من السهولة تحويل لغة الرياضيات التي تُعرف هذه المجالات والقوى بالقوانين الرياضية إلى " لغة

تصورية " قابلة للفهم والإدراك ، لذا فإننا سنلجأ إلى اختبار نوعٍ جديد من أنواع " الأدوات " الإدراكية في هذا العلم الوليد الناشيء ، السايكوفيزيا ، وسنحاول اشتقاق هذه " الرياضيات " الجديدة من صميم منطق الشرق القديم القائم على " التكامل بين المتناقضات " بدلاً من منطق الغرب القائم على الفردانية .

ففي الرسم السابق نعاني من عدم فهم حقيقة ما يجري بسبب " الإطار " القائم على قياس الواقع بأداة الإحداثيات المتعامدة فقط ...! الإحداثيات المتعامدة ، كما تعرف باسم الديكارتية ، والتي تعد من أولى إشعاعـــــــات " فجر " البداية للنهضة الأوربية هي تعبير هندسي متكامل عن " الفردانية " الغربية ..!

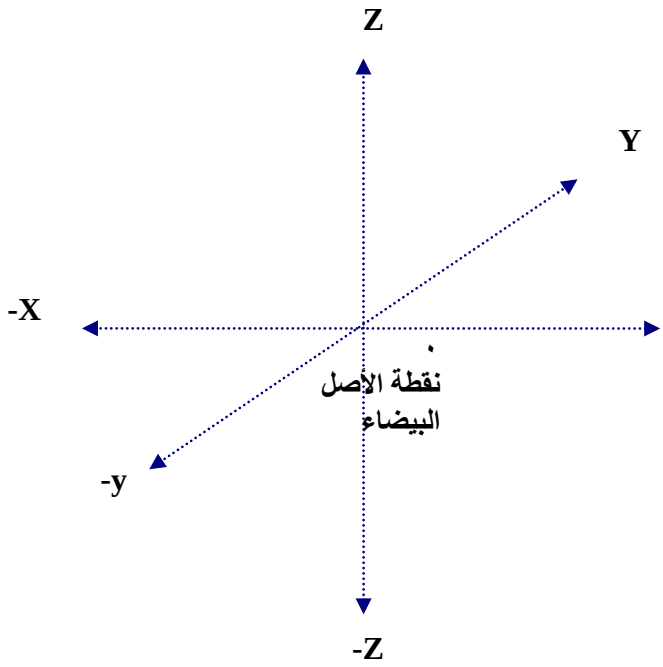

شكل (١٠)

الإحداثيات الديكارتية أو الفضاء الموجب عبارة عن تمثيل " هندسي " و " إستاتيكي " للفردانية الغربية ..!

فهذا الشكل ... (شكل (١٠)) يمثل بنقطة أصله المركزية العقل الحسي الغربي الذي يعد الجسد " أصل " القياس المعرفي بكليته ، فالصفر تجلٍ واضح لعدّ الوحدات الحسية المعروفة (المتر ، الثانية ، الغرام ....إلخ) مقاييس محورية تنطلق منها كل النظريات وتدور حولها فلسفة المعرفة الغربية برمتها وتتأثر بها ولو بصورة غير مباشرة ، وبالتالي ... فإن مرحلة ما بعد العقل التي نقصدها في هذا الكتاب هي المرحلة التي تتمكن من رسم صورة جديدة للكون .... بلا وحدات ... وبلا اعتبار لفصل الزمان عن المكان لتكمل الفيزياء النفسية الطريق الذي إنتهت فيه النسبية في الفيزياء وآخر نظريات الذاكرة البشرية ومفهوم " الكلانية " الذي تدور حوله . و السؤآل المطروح الآن هو : كيف يمكن التخلص من " فردانية " و " تخصيص " الإستدلال إلى " كلانية " تتمتع بشمول عام وأكثر تجرداً في الإستدلال ؟

الصفر الأبيض .... والصفر الأسود ..!

حينما نتأمل الشكل (٢) الممثل للين و اليانغ في فلسفة الطاو ، نجد بأنه تعبير حركي عن النظرة الشرقية للكون ، و بالإمكان الإفادة منه في ... إعادة رسم الإحداثيات الديكارتية لتلاءم الرؤيـــة الشرقية للوجود .. والطبيعة !

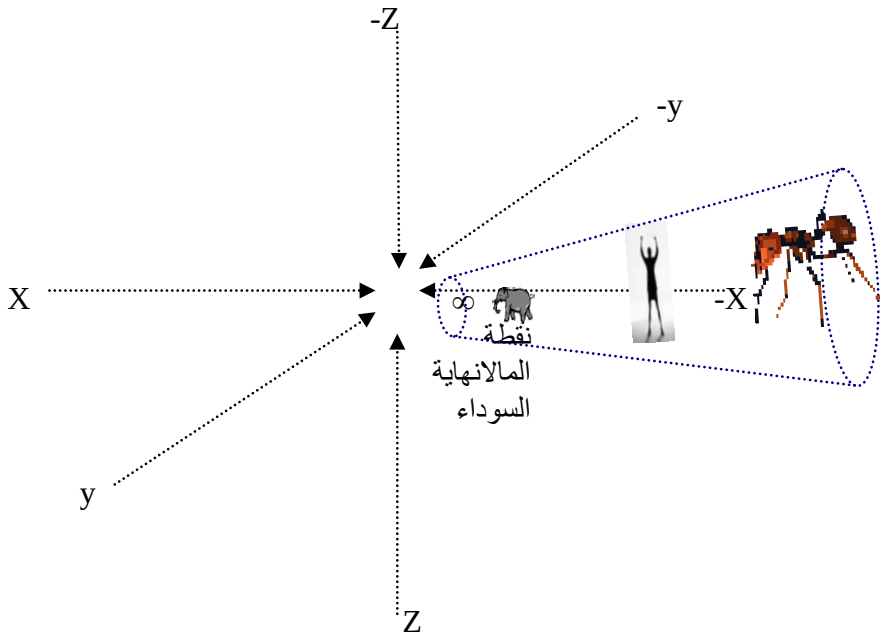

شكل (١١) الفضاء السالب ...!

الفضاء الأسود (فضاء "الين" حسب منطق الطاو) المكمل الديناميكي للفضاء الديكارتي الموجب ((الثقب الأسود **Black Hole** تمثيل واقعي طبيعي لهذا الفضاء))

إن الشكل (١١) يمثل المكمل الديناميكي الذي سنفترضه على " سُـنة " العالم بول ديراك ، وهي ما درجنا عليه في عموم محاولتنا لاستنباط منهجية شرقية علمية قائمة على فلسفة إجتماع التناقضات التي يراها " هيجل " أصيلة في طبيعة الكون ، ذلك أن الشكل (٩) يمثل الفضاء الديكارتي الموجب ، وهو يتمثل بالإحداثيات الثلاث " نابعة " من نقطة الأصل (صفر) وتتجه بإستقامةٍ نحو (المالانهاية) ، ونحن قد ناقشنا من قبل مسألة إن الصفر وفق مقاييس الإدراك الإسطواني عبارة عن (مالانهاية) من إمتداد رقمي يقع قبل (العدم) الذي هو غير حقيقي بمفهوم تقليص الحجم أو الزمن أو السرعة .... وبالتالي بالإمكان تصور فضاء سلبي تدخل فيه الإحداثيات ، بمعنى العمل بقاعدة " الين " الأسود ... في مقابلٍ للمالانهاية (∞) وسنسمي فضاء الين هذا بالفضاء الأسود كما في شكل (١١) ، أما قاعدة " اليانغ " فهي تؤسس شكل الفضاء الموجب الديكارتي المعروف الذي سنسميه من الآن فصاعداً الفضاء الموجب أو الفضاء الأبيض ، مثلما يكون بإمكاننا تسمية الصفر الاعتيادي مجازاً بالصفر الأبيض ، وعلامة المالانهاية (∞) بالصفر الأسود. نلاحظ في الشكل السابق أيضاً .. أن مقياس الحجم المخروطي يصبح مقلوباً هو الآخر ، فالفيل والأجسام الأكبر بما إنها تتجه نحو مالانهاية متقلصة (الصفر الأسود ∞)، لذا تصبح الأجسام الكبيرة أكثر تقلصاً (أصغر حجماً) ، فيما تصبح الأجسام الصغيرة بمقاييسنا الإدراكية الحسية (ذات المرجعية الجسدية) أكبر حجماً في الظاهر لأنها تبدأ من الصفر الأبيض الاعتيادي ...المالانهاية الصغرى ! فالمقياس الإدراكي الحجمي في الفضاء السالب هو مقياس إدراكي حجمي سالب ، و المفاجئآت التي يخبئها لنا هذا الفضاء الجديد الأسود كثيرة ، وأهمها تعليل ظاهرة الثقوب السوداء في الكون كما سيأتي لاحقاً .

الفضاء الموحد

تـرى كيـف سـيكون شـكل الفضـاء الموحـد ، الفضـاء الـذي تجتمـع فيـه قابليـة إدراك الفضائين المتناقضين ... حسب قواعد الخصب التموزية (الشرقية) ؟ شكل (١٢) .

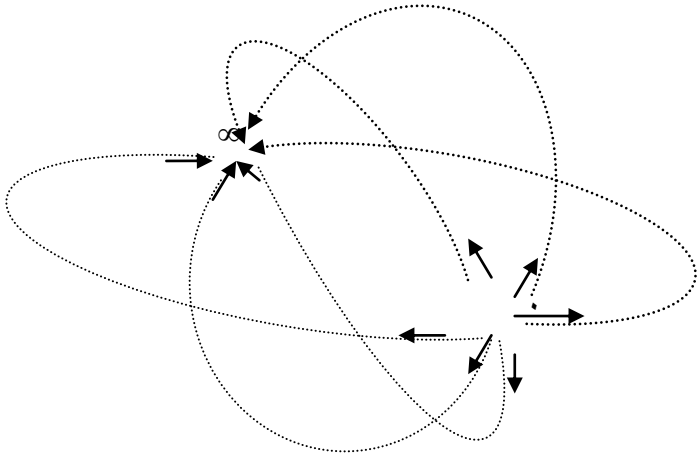

شكل (١٢)

الفضاء الموحد رباعي الأبعاد

تنبع الإحداثيات من الصفر الأبيض وتدخل في الصفر الأسود مكونة شكلاً كروياً وهي تمثيل (ديناميكي) لكلانية الشرق إعتماداً على مبدأ الجمع بين النقيضين في هوية ثالثة إن أهم المميزات التي تميز هذا الفضاء الموحد هو رسمه للعلاقة الهندسية التي تربط الثقوب الكونية البيضاء (**Quasars**) التي يعتقد بأنها " منابع " للمادة والطاقة الكونية

بالثقوب السوداء (**Black holes**) التي تلتهم المادة الكونية ولا يعرف مصير هذه الكتل الضخمة الملتهمة من مادة وطاقة الكون التي تدخل في فجوة صغيرة من الكون ...!

(٧) ، فالنظرية التي نطرحها الآن في تفسير هذه الظاهرة ، وفي ضوء الفضاء الموحد الناتج من منطق الشرق :

المادة الكونية الداخلة في الثقب الأسود تنتقل إلى فضاءٍ سالب

(ما بعد الثقب الأسود) نسبة للإدراك العقلي الحسي بعد أن جائت

أصلاً من فضاءٍ سالبٍ أيضاً (ما قبل الثقب الأبيض)

وعند العودة إلى شكل (١١) الذي أسميناه أيضاً عالم الثقب الأسود ، ونقصد حالة الفضاء التي تغيب عن الإدراك الحسي الاعتيادي " المخروطي " ، وحينما نقوم بتحويل الفضاء الموحد إلى دالة القياس الإسطواني للإدراك فإن مجمل الخطوط الممثلة للمحاور تنحل إلى تجويف إسطواني للإدراك تمثل قاعدتيه المالانهايتين البيضاء والسوداء (∞ & ٠) ...!

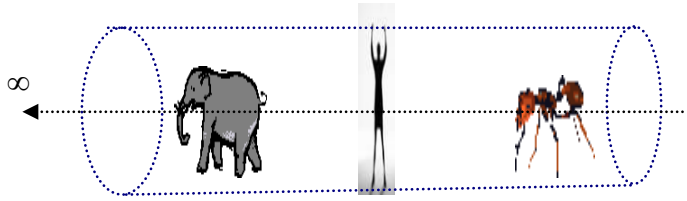

شكل (١٣) العلاقة بين الفضاء الموجب والفضاء السالب بالمقياس الإسطواني

(عالم الفضاء الحقيقي المجرد)

فهذا الفضاء هو الفضاء الحقيقي المجرد (والحقيقة نسبية أيضاً) ، إذ " المسارات " للصور المادية تنتقل من فقاعة إدراكية إلى فقاعة أخرى ، ففي الشكل السابق تمثل الإسطوانة مجالاً مفتوحاً للإدراك ، لكن العقل الحسي وبالمقياس المخروطي لا يستطيع إدراك ما بعد هذه الفقاعة الكروية للإدراك أو ما قبلها ..

فما بعد الفقاعة المخروطية هي الأجسام الكبيرة جداً ، التي لا يمكن إدراكها لكبر حجمها ، مثل كوكب الأرض الذي عاش البشر ملايين السنين على سطحه دون أن يدركوا حقيقة تكوره ، أما الأجسام التي تقع ما قبلها فالإدراك يغفل عن تحديد ملامحها أيضاً كالبكتريا و الجزيئآت و الذرات، وهكذا فإن ما نستطيع تمييزه بالعين المجردة يقع ضمن الفقاعة الإدراكية للحس (الإدراك المخروطي).

هذا كله لا يعني أننا تخلصنا من العديد من مشاكل " فهم " الطبيعة ، بل العكس ، نحن زدنا هذه المشاكل ولكن .. فتحنا باباً جديداً للتفكير ، وسنلاحظ في النهاية ، وبعد جمع أدوات الإستقراء الجديدة في هذا العلم الوليد .. إننا سنخرج بنتائج وتصورات " ثورية " قد تفتح باباً لتقدمٍ جديد .

المهم إن الصورة الجديدة عن الكون قائمة على الإدراك .. والتصور الإدراكي ، لكنه تصور موضوعي " هندسي " ، بمعنى هو إدراك " رياضي " قابل للتصور . لكن ... ماذا عن الإدراك " الكروي " ... والذي يتجاوز الحس ؟

فنحن وإن كنا لا ندرك بحواسنا حجم الأرض وكرويتها ، لكننا وبواسطة أدوات معرفية يمكننا توقع ذلك ، كأن نصور الأرض من الفضاء ... لكن ... لهذه الأدوات المساعدة أيضاً حدود ..!

فهي لن تستطيع تصوير ما بعد الثقب الأبيض وماذا بداخل الثقب الأسود ، لأنها أدوات مادية إذ تنحل المادة إلى طاقةٍ محظة خارج إطار هذه الحدود " الكروية " للإدراك التي تمثل الفضاء الموحد والتي لا تستطيع حتى فوتونات الضوء الإفلات

من تأثيراتها ، ما يعني إننا بحاجة إلى " أدوات " لا مادية قادرة على النفاذ إلى ما دون وما فوق حدود الإدراك الكروي العام !

وهو ما سنحاول توضيحه في هذا الكتاب ، لهذا السبب .. فمن غير المعقول أن نظل متشبثين بالمنهج الفيزيائي التقليدي المعروف في محاولة فهم ماهية الطبيعة " مادون " المادية الممثلة بالموجات والمجال و الفضاء- زمن ، وما فوقها الممثلة بما وراء المجرات خصوصاً ظاهرة الثقوب الكونية البيضاء والسوداء ، حيث أن الدور يقع على عاتق السايكوفيزيا في سبر ما بعد وما دون الكون وليس الفيزياء التقليدية ، لأن العقل المعاصر قد وصل إلى نهاياتٍ مسدودة بما يتعلق بتفسير هذه الظواهر حسب قناعتنا وكما شرحنا هذه النهايات والطرق المعرفية المغلقة في العلم الحديث في بحث " الوعي الجمعي " في موضوع : ملامح أساسية لتكنولوجيا المستقبل .

الهوامش والمراجع :

(١) أسطورة الإطار **The myth of framework**، بترجمة يمنى طريف الخولي ، عالم المعرفة ، الكويت ٢٠٠٣ ، ص ٢٠ – ٤٥ .

(٢) لمعرفة المزيد عن المنطق الشرقي (الطبيعي) يمكن الرجوع إلى مواضيع الباحث المنشورة ، " عندما تستفيق آسيا " على الرابط : **http://www.doroob.com/?p=٣١٧٩٧** وكذلك موضوع " قيامة المنطق الشرقي " على الرابط : **http://www.doroob.com/?p=٣١٩٢٥**

أسطورة الإطار ص ٣٥ .

عندما تستفيق آسيا ، قيامة المنطق الشرقي (على الروابط السابقة) .

(٣) أنظر للباحث: الوعي الجمعي البشري ودوره الأساس في تحريك التأريخ، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية الإلكترونية عدد ١٧ شتاء ٢٠٠٨

http://www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm

محمد بني يونس ، مبادئ علم النفس ، عمان ، الأردن دار الشروق (٢٠٠٤) ، ص ٥٢٠ .

(٤) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر : وليم كاوفمان , المجرات و الكوازارات ، بترجمة عبد الكريم السامرائي ، دائرة الشؤون الثقافية ، بغداد (١٩٨٩) ص ٢٠٠ – ٢٠٣ .

(٥) للمزيد من التفصيل عن مفهوم " الهولوغرام " أنظر مقال : قيصر زحكا ، الدماغ وعلم النفس من وجهة نظر هولوغرافية

http://maaber.٥٠megs.com/third_issue/alternative_medicine_١.htm#_ftnref١

ب . ب . لود ، الكهرومغناطيسيات ، بترجمة علي إبراهيم العزاوي ، ص ٣٢ ، دار الحكمة ، بغداد ١٩٩٠ .